تصوف الإمام محمد بن علي الجاواني

الباحث/ إسلام محمد زكي زغلول

المستلخص:

سلك الإمام محمد بن علي الجاواني العراقي ت ٥٦١ هـ طريق الصوفية، وانتهج نهجها عن أحد أئمتها الإمام أبي حامد الغزالي، فحدث بعده عن الصوفية وتكلم مروجا إليها تأليفا عن طريق كتبه، ككتاب الذخيرة لأهل البصيرة، وعن طريق الدروس في زمنه.

فكان من أحد رواد التصوف في عصره إماما متكلما مناظرا، فقيها، مدافعا عن الصوفية الحقة المعتدلة على نهج السنة والشريعة، مهاجما لمن يدعون أنفسهم من الصوفية. مبينا لمكنونات الأحكام والتشريعات الإلهية.

الهدف من هذا البحث هو إلقاء الضوء على صوفية الإمام العراقي، وتفحص بصماته، وآراءه ودفاعاته عن التصوف، وإظهار منهجيته في الأخذ والرد، وإظهار طريقته في الاستدلال وإثبات أفكاره، وعلى أي أساس يقبل ويرفض، واستخدم الباحث في هذا البحث المنهج الوصفي الاستقرائي.

جاءت أهم النتائج التي توصل لها البحث أن الإمام محمد بن علي الجاواني العراقي كانت صوفيته وسطية معتدلة على نهج القرآن والسنة متبعا في هذا منهج شيخه الإمام أبي حامد الغزالي، مبتعدا عن التطرف، مادحا للعلم والعلماء، ذاما للجهل والجهلاء.

الكلمات الدالة: صوفية، محمد بن علي الجاواني، وسطية.

Abstract:

Imam Muhammad bin Ali al-Jawani al-Iraqi ،d. 561 AH ،followed the path of Sufism ،and followed its approach on the authority of one of its imams ،Imam Abu Hamid al-Ghazali.

He was one of the pioneers of Sufism in his time ،an imam ،a debating speaker ،a jurist ،a defender of true and moderate Sufism on the approach of Sunnah and Sharia ،attacking those who claim to be Sufis. Indicating the divine provisions and legislation.

The aim of this research is to shed light on the Sufism of the Iraqi Imam ،to examine his imprints ،his opinions and his defenses of Sufism ،to show his methodology in taking and responding ،and to show his method of reasoning and proving his ideas ،and on what basis he accepts and rejects ،and the researcher used in this research the descriptive inductive method.

The most important findings of the research came that Imam Muhammad bin Ali Al-Jawani Al-Iraqi was a moderate Sufi on the approach of the Qur'an and Sunnah ،following in this the approach of his sheikh ،Imam Al-Ghazali ،moving away from extremism ،praising science and scholars ،vilifying ignorance and ignorant people.

Keywords: Sufism ،Muhammad bin Ali Al-Jawani ،moderation.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإن التصوف هو جانب من جوانب التراث الإسلامي الغني، الذي اهتم بتزكية النفس وتطهير القلب من الشوائب، والسير إلى الله تعالى بالعبادة والمعرفة والإخلاص. وقد خرج من هذا الجانب جيل من العلماء والأولياء، الذين تركوا آثاراً باقية في التاريخ، وأثروا في حياة المسلمين بفضائلهم وأفكارهم.

ومن هؤلاء العلماء المتصوفة شخصية نادرة، هو محمد بن علي الجاواني العراقي، الذي يُعد من أبرز تلامذة الإمام أبي حامد الغزالي في التصوف، وأحد أئمة المذهب الشافعي في عصره. فقد كان عالماً فاضلاً، صاحب كتب في علوم شتى منها النحو والشعر والتصوف والفقه، منها شرح المقامات الحريرية، وعيوب الشعر، والذخيرة لأهل البصيرة.

ولكن ما هي صوفية هذا المؤلف؟ وما هي أبرز مظاهر صوفية في كتبه؟ وما هي أهم مبادئه وأفكاره الصوفية؟

هذه هي أسئلة يحاول هذا البحث إجابتها، اعتمادا على كتابه «الذخيرة لأهل البصيرة»، وذلك من خلال استقراء وتحليل أقواله الواردة في كتابه، وتقويمها بالمعايير الشرعية والعقلية.

وسيتناول هذا البحث محورين رئيسيين:

- المحور الأول: التعريف بمحمد بن علي الجاواني: تتضمن نسبه وولادته ونشأته وأبرز شيوخه وتلامذته ورحلاته ووفاته.

- المحور الثاني: صوفية محمد بن علي العراقي الجاواني: تتضمن مفهوم التصوف لديه، وأبرز مظاهر صوفيته في كتابه الذخيرة لأهل البصيرة، مع تحليل أهم مبادئه وأفكاره الصوفية.

وسنختم هذا البحث بخاتمة تلخص أبرز نتائج البحث، وتبرز صوفية الجاواني وأفكاره.

المحور الأول: التعريف بمحمد بن علي الجاواني وأبرز شيوخه ورحلاته ووفاته.

اسمه ونسبه ونسبته وكنيته، ومولده[١].

هو: أبو عبد الله، وأبو سعيد محمد بن علي بن عبد الله بن أحمد بن أبي جابر بن الهيجاء بن حَمدَان الجاوانيُّ[٢] قبيلةً، الحِلِّويُّ[٣] مولدًا، الكُردي عِرقًا، البغدادي دارًا، الخُفْتِيانيُّ[٤] وفاةً، البَوَازِيجيُّ[٥] مدفنًا، العراقي موطنًا، الشافعي مذهبًا، الأشعري عقيدةً.

طلبه للعلم ورحلاته العلمية، ومكانته[٦].

حيا الإمام محمد بن علي العراقي حياة العلم وتنوعت مدروساته، فتنوعت بها مصنفاته، فكان شارحا للبلاغة والأدب، متكلما مناظرا في الكلام، فقيها في الشريعة، أصوليًّا في العقيدة، مفسرًا للقرآن، مفندا لمسائل النحو واللغة.

قدم بَغْدَاد صَبيا وتفقه بهَا على الْغَزالِيّ والشاشي وإلكيا الهراسي وبرع وتميز، وَقَرَأَ المقامات على الحريري وشرحها، وَكَانَ إِمَامًا مناظراً، قيل عنه: هو أديب العلماء، الإمام العالم بالنحو والفقه واللغة، كان رحمه الله فاضلا فقيها، مبرّزا، مناظرا، ورعا، زاهدًا[٧].

شيوخه:

١- حُجَّة الإسلام، ومَحَجَّة الدِّين التي يتوصَّل بها إلى دار السَّلام، أبو حامد، محمد بن محمد بن محمد، الغزالي الطوسي النيسابوري الصوفي الشافعي الأشعري (٥٠٥هـ)، صاحب المصنفات الكثيرة، جَامع أَشتات العُلُوم والمبرز فِي المَنقول منها والمفهوم، والذي تفقه على يده المصنف ببغداد[٨].

---

(1) انظر ترجمته في: السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار عيسى البابي الحلبي؛ القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٤ هـ- ١٩٦٥ م (١/ ١٨٢)، الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين

الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م (٦/٢٧٨).

(2) نسبة إلى جاوان: قبيلة كردية قديمة، سكنوا الحلة المزيدية بالعراق، ذكرت أول ما ذكرت بسكنها الحلة مقرونة بالإمام محمد بن علي العراقي عند السبكي، والفيروزبادي ومن بعده الزبيدي. انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٦/ ١٥٢)، الفيروزابادى، القاموس المحيط، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م (ص: ١١٨٨)، مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية (٣٤/ ٣٨٧).

(3) نسبة إلى الحلَّة، ومعناها في اللغة: القوم النزول وفيهم كثرة، وهي علم لعدة مواضع أشهرها حلَّة بني مزيد مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كانت قديما تسمّى الجامعين، والحِلّة أيضا بين واسط والبصرة: حلَّة بني قيلة وحلَّة بني دبيس بن عفيف الأسدي. انظر: معجم البلدان ابن عبد الله الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥ م (٢/٢٩٤، ٢٩٥).

(4) نسبة إلى خُفْتِيان: قلعتان عظيمتان من أعمال إربل، إحداهما على طريق مراغة يقال لها خفتيان الزّرزاري على رأس جبل من تحتها نهر عظيم جار وسوق وواد عظيم، والأخرى خفتيان سرخاب بن بدر في طريق شهرزور من إربل، وهي أعظم من تلك وأفخم، ويكتب في الكتب خُفْتِذكان، وهو الصحيح في اسم القلعتين المذكورتين. معجم البلدان (٢/ ٣٧٩، ٣٨٠).

(5) نسبة إلى البوازيج بلد قرب تكريت على فم نهر الزاب الأسفل حيث يصبُّ في دجلة، ويقال لها بوازيج الملك، لها ذكر في الأخبار والفتوح، وهي الآن من أعمال الموصل، ينسب إليها جماعة من العلماء. معجم البلدان (١/ ٥٠٣).

(6) شمس الدين الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز) تاريخ الإسلام ووفيات، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م (٣٨/٣٦٢، ٣٦٣)، الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث - بيروت، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م (٤/ ١١٢)، حاجي خليفة، سلم الوصول إلى طبقات الفحول، تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسيكا، تركيا، ٢٠١٠ م (٣/ ١٩٧)، طبقات الشافعية للإسنوي (١/ ١٧٩)، حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد (٢/ ١٧٨٧)، البابانى البغدادي (إسماعيل بن محمد)، هدية العارفين، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان (٢/ ٩٥).

(7) طبقات الشافعية للإسنوي (١/ ١٧٩).

(8) انظر ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٦/ ١٩١).

٢- شمس الإسلام، أبو الحسن، إلكيا الهراسي، علي بن محمد بن علي الطبري (٥٠٤هـ)[١].

٣- فخر الإسلام، أبو بكر، محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر، الشاشي الشافعي (٥٠٧هـ)[٢].

٤- العَلامةُ، البارعُ، ذو البلاغتين، أبو محمد، القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، الحريري البصري (٥١٦ هـ)، صاحب المقامات التي قرأها عليه المصنف[٣].

وفاته:

كانت وفاته سنة واحد وستون وخمسمئة (٥٦١ هـ)، بخفتيان، وحمل فدفن بالبوازيج، وذلك ما يرجحه السيوطي والصفدي[٤] وانفرد السيوطي بمكان وفاة ومدفن الإمام العراقي رحمه الله.

المحور الثاني: صوفية محمد بن علي الجاواني العراقي

تتضمن مفهوم التصوف لديه، وأبرز مظاهر صوفيته في كتابه الذخيرة لأهل البصيرة، مع تحليل أهم مبادئه وأفكاره الصوفية.

مفهوم التصوف عند محمد بن علي الجاواني العراقيُ:

عُرِفَ التصوف عند أئمته بأكثر من صورة فمنهم من عزاه للزهد، ومنهم من عرف التصوف بمعرفة الحقيقة، ومنهم من جعله في التزام الأخلاق النبوية، وعرف البعض التصوف بأنه: «الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني»، وقيل: «التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء»[٥].

وقال الجنيد عندما سئل عن التصوف: «التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في الشريعة»[٦].

---

(1) انظر ترجمته في تاريخ الإسلام (٩٢/٣٥ – ٩٥)، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٧/ ٢٣١، ٢٣٤).

(2) انظر ترجمته عند ابن الصلاح، طبقات الفقهاء الشافعية، تحقيق: محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م (١/ ٨٥ – ٩١)، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٦/ ٨٠).

(3) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٦٠ – ٤٦٥).

(4) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (١/ ١٨٢)، الوافي بالوفيات (٤/ ١١٣).

(5) القشيري (عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك) الرسالة القشيرية، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، د. محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٩ ه- ١٩٨٩م ص ٢١٧.

(6) الكلاباذي (محمد بن إسحاق) التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق: آرثر جون أربري، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م (ص: ٢٥).

وتميزت صوفية المصنف وتعريفها عنده بأنها ارتبطت بتعلم الشريعة واتباعها، ولزومها، فلا تصوف بغير سنة وشريعة، ومن خرج عن هذين خرج عن التصوف وأهله، ولم تنحصر حصرا في زهد أو خلق وفقط، حيث يقول: «فإذن؛ بقسمِ الضرورةِ تكون السعادةُ في متابعةِ الشريعةِ وملازمةِ حدودِ الأحكامِ وبتعيُّن ذلك، ومعنى العُبوديةِ التذلُّلُ بأوامرِ الشرعِ، وإن من تعدَّى الحدودَ وتجاوزَها باختيارِه ورأيه؛ فإنه يقعُ في خطرِ الهلاك».

كما يقول: «فَخَلَقَ اللهُ تعالى العقلَ لتقفَ الشهوةُ على حدِّها فلا يترُكها تتعدى طَوْرَها؛ وجعلَ الشريعةَ على لسان الأنبياء عليهم السلام مُبَيِّنَةً للحدود».

التقيد بالشريعة والسنة، ونقده وشدته على المنافقين:

الصوفية منذ بدايتهم كان دأبهم توضيح أصل طريقتهم، وأن أصل طريق الصوفية هو فعل ما هو موافق للكتاب والسنة، ويشددون على أن من لم يلتزم بهذا المنهج فقد حاد عن الصوفية؛ يقول شيخ مشايخ الصوفية، الجنيد: «علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يسمع الحديث، ويجالس الفقهاء، ويأخذ أدبه عن المتأدبين، أفسد من اتبعه وتتبعه حرام»(١).

ورد في كتاب الذخيرة لأهل البصيرة ما يدلل على تقيد الجاواني بالشريعة والسنة، حيث يقول:

«فإنْ كان لا يقدرُ على تنظيفِ قلبِه من هذه العلائقِ هكذا، فليواظِبُ على العباداتِ، وذكرِ الله تعالى، ويعوِّدُ نفسَهُ أبدًا ذلك ليغلبَ الأُنسُ بذكرِ الله سبحانه على قلبِه فيكونُ أغلبَ من حُبِّ الدنيا، ويطالبُ نفسَهُ أبدًا بوجه غلبةِ حبِّ اللهِ تعالى وذكرِه على حبِّ الدنيا؛ بمتابعة الشريعة، وتقديمِ أوامرِها على هوى النَّفْسِ».

ونقد الإباحية والطوافين وهو دليل على سلامة نهجه وارتباط صوفيته كما –هو الأصل– بالسنة، وكذلك مدحه للعلم والعلماء وأرباب الأحوال من العلماء؛ قال: «أما مَن سوى هذا من الإباحيَّة والطوَّافينَ الذي لا حاصلَ لهم ولا دينَ ظهروا في هذا الزمان ولم يكن لأحدهم هذه الحال، لكن حَفِظوا عباراتٍ من كلام الصوفية مُزَوَّقةً، وتعلقوا بألفاظ من طامات القوم مُزيَّفةً، وجعلوا شغلَهم التغسُّلَ بالمياه والتزيُّن بلبسِ الفُوَط والمُرَقَّعات، والتحلِّي ببَسطِ السَّجادات، وأقبلوا على ذَمِّ العِلم والعُلَماء، فهُم شياطينُ الخَلق وأعداءُ الله ورسولِه، فينبغي قتلُهم وتطهيرُ الأرضِ منهم؛ فإن الله تعالى ورسوله عليه السلام مَدَحا

(1) الرسالة القشيرية (١/ ٧٩).

العِلم والعلماء ودَعَيا الناس إلى العلم، وهذا المُدبرُ الخسيسُ إذا لم يكن صاحبَ حـال ولا محصّلًا للعُلوم فمتى يجوز له أن يتلفظَ بلفظة في حقِّ أهل العلم وأرباب الأحوال».

وفي موضع آخر يقول: «فكُلٌّ من تراهُ منهم أو من غيرهم يطعنُ فـي العِلـم والعلمـاء، فاعلم أنه يفعل ذلك من عدمِ الدين وفَقْـدِ التحـصيل، وأنّـه عـدوٌ لله ولرسـولِه ﷺ ولشرعِه؛ فاجتنبه!».

ويفسر مادحا العلم والعلماء، مما يبين اعتدال العلم: «فإن من رسخت قدمه في العلـم إذا عارضَتْهُ شُبهةٌ سَهُلَ عليه حلّها فلا يَصيرُ له حجابًا، وغيره إذا عَرَضَتْ له أدنى شُـبهةٍ حجبته وبقي مدةً في قَيدِ الخيال، والرّاسِخُ في العلم على الوجه المُقدَّمِ ذكـرُهُ آمـنٌ مـن ذلك».

ويوافق ما قاله الجاواني قول الإمام الغزالي: «من حصّل الحديث والعلم ثم تصوف أفلـح ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه»(١)

التنبيه على أول طريق الصوفية، وهو المجاهدة بالتحلية والتخلية:

نبه الإمام محمد بن علي موضحا أن أصل طريق الصوفية هو المجاهدة، وتحلية الـنفس بالأخلاق الحميدة وتخليتها مما يشوبها من أخلاق وصفات بذيئة؛ قال: «فإنّ أوّلَ طريـقِ الدِّينِ إنَّما هو المُجاهدةُ».

فمجاهدة النفس والشيطان والهوى عنده وعند شيخه أول الطريق في الدين، قـال حجـة الإسلام: «المقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك إلى شهواته، وإن عجـز عـن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين، فإذا قهرتـه وحـصلت المقـصود فقـد ظفرت، وما دمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر، وما دمت في المجاهدة فأنـت بعد في طلب الظفر».

ورغم قول المصنف أن علوم الأنبياء لدنية تحصل لهم بالمكاشفة وتصل إلى القلـب دون تعلم، إلا أنه ذكر المجاهدة قبل ذلك؛ قال: «وأول كلِّ ذلك إنما هو المجاهدةُ؛ كمـا قـال تعالى: {واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا}(٢).

التنبيه على أهمية محبة الله ووجوب معرفته، وأن سعادته بذلك:

لما كانت محبة الله أعلى مراتب الإيمان وأجل مقاصد العبادة، عند المسلمين عامة وعنـد الصوفية خاصة كانت محبة الله من سمات صوفية الإمام الجاواني رحمـه الله، وكـذلك

(1) الغزالي (محمد بن محمد) إحياء علوم الدين، تحقيق: دار المنهاج، دار المنهاج، جده، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م (٨٣/١).
(2) سورة [المزمل: ٨] .

عند شيخه الغزالي؛ قال الإمام الغزالي: «إن المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها»(١).

وقد بين الجاواني رحمه الله شرف هذا الأمر وحقيقته؛ إذ يقول:

«لا معرفةَ أشرف من المعرفة به، ولا لذةَ كالالتذاذ بمعرفته، ولا نظر ألذ من النظر إلى جمال حضرة الرُّبوبيَّة، فمقتضى طبعِ القلب إنما هو هذا؛ لأن مقتضى كُلِّ شيء خاصيتُه التي خُلِقَ من أجلها، فإن وُجِدَ قلبٌ ليس فيه اقتضاءُ هذه المعرفة وقد بَطُل منه طلب ذلك فهو كبدنٍ مريضٍ بَطُلَ عن الاقتضاء بالغذاء».

ثم ذكر أن تمام سعادة الآدمي في معرفة الحق جل جلاله وعبوديته وعبادته، وذكر وجه كون معرفة الله تمام السعادة؛ فقال: «ودليلُ كونِ عبوديته وعبادته سببُ سعادتِه أنه إذا ماتَ الآدميُّ؛ فإنما يكونُ مرجعُهُ إلى الله سبحانه، وشغلُهُ معه، وعليه يُعرَضُ، ومن كان مستقرُّهُ مع أحدٍ فسعادتُه أن يكونَ بينه وبين ذلك الأحدِ مودةٌ ومحبَّةٌ، وكلما كانت محبتُهُ، أكثرَ كانت سعادتُهُ أكثر؛ فإن لذةَ مشاهدةِ المحبوبِ والراحةِ في لقائه لا يعدلُها شيءٌ ولا تَغلِبُ محبةُ الله تعالى علي قلبٍ إلا بمعرفتِه وكثرةِ ذكرِه».

قال الزبيدي شارح الإحياء: «وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحي الذى هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به، فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره؛ فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديمُ له إن عرفه خالقًا موجدًا ومخترعًا مبقيًا وقيومًا بنفسه ومقومًا لغيره، فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه، والمحبة ثمرة المعرفة لا عينها لأن الإنسان لا يحب إلا من يعرف؛ فالمحبة تتبع المعرفة بالضرورة»(٢).

ثم بين رحمه الله كيف يغلِّب محبة الله على حب غيره بقوله: «وطريقُ غلبةِ المحبةِ والذكرِ على القلب أن يواظبَ على العبادات ويتفرغَ لها، وإنما يمكنُهُ التفرغُ لها إذا قَطَعَ العلائقَ والشهواتِ والشواغلَ عن قلبه وجملتِه بأن يُقلِعَ عن المعاصي ويحترزَ منها، فإن ذلك سببُ خَلْوةِ القلبِ، وأداء الطاعاتِ سببُ غلبة الذِّكرِ على القلب».

(1) إحياء علوم الدين (٣٦٣/٨، ٣٦٤).

(2) الزبيدي، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م (١٢/ ٣٣٢).

ثم بين أن الابتعاد عن الله ومحبته وتغليب محبة غيره يؤدي للهلاك، قال: «وسببُ هلاكِ قلبِ الآدميِّ أن يَستغرقَ بمحبةِ ما سوى الله تعالى، والبدنُ يُحفَظُ ويُتَعَهَّدُ لأجلِ القلبِ»

الزهد في حب غير الله وفي الدنيا:

فرَّق الجاواني بين أنواع الزهد، وقسمه إلى أقسام، فبعض الزهاد عنده متعلقون بالدنيا بقدر، لذلك تفاوت الزاهدون بقدر تعلقهم بالدنيا وشواغلها وتغليب حب الله على حب الدنيا وما فيها، ووضع محكا ومعيارا لمعرفة محبته للدنيا أكثر أم محبته لله سبحانه وتعالى؛ فيقول: «وهذا أحدُ الأسبابِ المخلِّدةِ في العذابِ، واعلم أن كلّ أحدٍ يدَّعي محبةَ الله تعالى أو أنه يحبُّ اللهَ أكثرَ من الدنيا فاعتبر ذلك، فإن له محَكًا ومعيارًا يعرَفُ به: وهو أنه إذا أمرَتْهُ نفسُه أو شهوتُه بشيء وأمرَ الشرعُ بخلافِه فلينظُر فإن رأى قلبَهُ يميلُ إلى ما أمرَهُ اللهُ تعالى به أكثرَ علِمَ أنه يُحِبُّ اللهَ تعالى أكثرَ كما إذا أحبَّ شخصين أحدَهُما أكثرَ مِنَ الآخرِ فاختلفا؛ فإنه يكون في جانبِ من يحبُّه أكثر، وبهذا يَعرِفُ نفسَهُ أنه يحبُّهُ أكثرَ، وإذا لم يكن كذا فإن قوله بلسانِه: أنا أحبُّ اللهَ سبحانه أكثرَ لا ينفعُ؛ لأنه كذبٌ».

وعد الجاواني الزاهدين في ثلاثة فرق:

١- الذين لم يكن لهم تعلق بالدنيا عن الآخرة إلا بقدر الحاجة، وهم المؤمنين.

٢- الذين تعلقوا بالدنيا وأخذوا منها وتأخروا عن عمل الآخرة لكنهم حفظوا أصل الإيمان وهم العصاة.

٣- الذين نسوا نفوسهم وخالقهم وآخرتهم، وشغلوا كليتهم بالدنيا وبالتمتع بشهواتها، وهم الكافرون.

وقرر احتياج الإنسان من الدنيا، فأجملهم في شيئين: معرفة الله. وحفظ بدنه من أسباب الدنيا وأخذه منها بقدر الحاجة.

ثم بين احتياج البدن من الدنيا، وهي ثلاثة أشياء لا غير: القوت والملبس والمسكن. ونبه على أنه ليس الهدف من الدنيا حقيقةً في تحصيل هذه الأشياء؛ فقال: «فينبغي أن يكونَ حرصُهُ على وصولِ الطعامِ إلى المَعِدَةِ كحرصِهِ على تفريغِها منه، فكلاهما يضطَّر إليه وكذلك يفعلُ في جميعِ أمورِهِ»

فإنما الغرض هو غذاء القلب، وهو معرفة الله والزهد في غيره: «وغذاءُ القلبِ المعرفةُ، وكلما كثُرَتْ كان أجود، وكلما كثُرَ غذاءُ البدن كان أدْعَى إلى الهلاكِ».

الحواس والنوم والإلهام التي تعرف بهما العلوم:

للقلب عند الإمام الجاواني ويعني بالقلب الروح قوتين يعرف بهما جملة العلوم والصناعات، وهما أولا: قوة الحواس الخمس، وثانيا: كوة في باطن القلب، وهذه الروزنة أو الكوة إذا كان القلب صافيا، فارغا من المحسوسات والتعلق صارت صافية صالحة لتلقي العلوم ويدلل على هذا القول بدليلين، النوم والإلهام:

– النوم؛ حيث يقول الجاواني: «فإنه إذا انسدّتْ بالنوم طرقُ الحواس انفتح باب الرَّوْزَنَةِ فيخبُر بما في عالمِ الملكوتِ واللّوْحِ المحفوظ من الغيبِ، ويعرف ما يأتي في المستقبل ويحدُث فيه ويراه، إما على جَلِيَّةِ الحالِ التي يكونُ عليها ويحدثُ لذلك، وإما على مثالٍ يفتقرُ فيه إلى تعبيرِ الرُّؤيا».

– الإلهام: ويدلل على ذلك بقوله: «ليس أحدٌ إلا وله فَراساتٌ وخواطرُ تطرقُ قلبَه على سبيلِ الإلهامِ لا مِن طريقِ الحواس، لكن يظهرُ في القلبِ بحيث لا يعلم مِن أين جاء ذلك؛ فيتحقَّقُ بهذا الطريق أن العلومَ كلّها ليست من طريقِ الحواس فقط».

وهو بهذا يوافق الإمام الغزالي؛ قال الإمام الغزالي: «اعلم أن العلوم –التي ليست ضرورية وإنما تحصل في القلب في بعض الأحوال– تختلف الحال في حصولها فتارةً تهجمُ على القلب كأنه أُلقيَ فيه من حيث لا يدري، وتارةً تُكتسبُ بطريق الاستدلال والتعلم، فالذي يحصلُ لا بطريقِ الاكتسابِ وحيلةِ الدليلِ يسمى إلهامًا، والذي يحصلُ بالاستدلال يسمى اعتبارًا واستبصارًا. ثم الواقع في القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ينقسم إلى ما لا يدري العبد أنه كيف حصل له ومن أين حصل، وإلى ما يطلع معه على السبب الذي منه استفاد ذلك العلمُ وهو مشاهدة المَلَكِ المُلْقِي في القلب، والأول يسمى إلهاماً ونفثًا في الرُّوع، والثاني يسمى وحيًا وتختص به الأنبياء، والأول يختص به الأولياء والأصفياء، والذي قبله وهو المُكتسب بطريق الاستدلال يختص به العلماء»[(١)].

قال الإمام ابن تيمية[(٢)]: «فإذا كانت الأمورُ الكونيةُ قد تتكشف للعبد المؤمن يقيناً أو ظنًّا فالأمورُ الدينية كذلك بطريق الأولى؛ فإنه إلى كشفِها أحوجُ، لكن هذا في الغالبِ لا بد أن يكون كشفاً بدليل وقد يكون بدليلٍ ينقدح في قلب المؤمن ولا يمكنه التعبير عنه وهذا أحد ما فسر به معنى الاستحسان»[(٣)].

(1) إحياء علوم الدين (٦٧/٥).

(2) هو أبو العباس، تقي الدين، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الملقب بشيخ الإسلام، ولد في حران، كان مناظرا للعلماء بارعا في العلم والتفسير، له مؤلفات كثيرها أبرزها في الفتاوى، والجمع بين النقل والعقل. الأعلام (١٤٣/١ – ١٤٥).

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤م (١٠/ ٤٧٦، ٤٧٨).

الخاتمة:

في هذا البحث، تناولنا صوفية محمد بن علي الجاواني، والتي تعد من أهم جوانب فكره وحياته. بدأنا بالتعريف به، ومراحل تطوره العلمي، ثم بيّنا موقفه من التصوف، وكيف نقد المنافقين والزنادقة، وأظهر عجزهم عن الوصول إلى الله. وهذا من اطلاعنا على أبرز مؤلفاته في مجال التصوف، كتاب الذخيرة لأهل البصيرة، الذي يعد عملا صوفيا مميزا جمع فيه الجاواني علم الإمام الغزالي، وأحاط فيه بمعظم كتب الغزالي، ونسج نسجا جديدا أبدع فيه صورة التلخيص لعلم إمام كبير كالغزالي وليس تلخيصا لكتبه بصورة نمطية، وأخيراً.. استعرضنا مفهوم الجاواني للصوفية، والذي يقوم على التزام الشرع والسنة، والمجاهدة للتخلص من الشهوات والوصول لمعرفة الله، والترقي في مراتب هذه المعرفة المهمة لله بالتنزيه والتقديس وصولا لحبه، والإحسان في عبادته، وبيَّنا واحدة من أبرز مظاهر وأفكار الصوفية عنده وعند شيخه وهي تلقي العلوم وهبوطها على القلب عن طريق الإلهام والنوم، وذلك بعد المجاهدة والصفاء والخلو من غير الله سبحانه وتعالى.

المصادر والمراجع:

ابن الصلاح، طبقات الفقهاء الشافعية، تحقيق: محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

ابن تيمية، مجموع الفتاوى، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤م.

الإسنوي، طبقات الشافعية، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ م.

الباباني البغدادي (إسماعيل بن محمد)، هدية العارفين، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان.

الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥ م.

الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز) تاريخ الإسلام ووفيات، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م.

الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان) سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م.

الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

الزبيدي، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.

الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م.

السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، دار هجر، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار عيسى البابي الحلبي؛ القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٤ هـ– ١٩٦٥ م.

الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ– ٢٠٠٠م.

الغزالي (محمد بن محمد) إحياء علوم الدين، تحقيق: دار المنهاج، دار المنهاج، جده، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١م.

الفيروزابادى، القاموس المحيط، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

القشيري (عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك) الرسالة القشيرية، تحقيق: د. عبد الحليم محمود، د. محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٩ ه- ١٩٨٩م.

الكلاباذي (محمد بن إسحاق) التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق: آرثر جون أربري، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

حاجي خليفة، سلم الوصول إلى طبقات الفحول، تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسيكا، تركيا، ٢٠١٠ م.

حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد.